الفصل الثامن

عطاء الإسلام والإبداع العلمي للمسلمين

١- التفكير وطلب العلم فريضة إسلامية: النهضة العلمية والفكرية عند المسلمين فريضة دينية.

٢- الإسلام وإعلاء قيمة العقل والعلم.

٣- تمييز الإسلام بين العلم والجهل.

٤- أهمية البرهان الشرعي والعقلي والعلمي في الفكر الإسلامي.

٥- دعوة الإسلام للمعارف اليقينية.

٦- تأكيد القرآن علي المعرفة الصحيحة بعيدا عن الهوى والمصالح الخاصة.

٧- مصادر المعرفة في الفكر الإسلامي.

٨- المصدر الحاكم في المعرفة.

٩- الدعوة للتفكير وإعمال العقل في السنة النبوية.

١٠- الدعوة القرآنية للتفكير وإعمال العقل في كل مخلوقات الله.

١١- العلاقة بين العقل والوحي.

١٢- علم الإنسان محدود ولا توجد نهائية علمية.

الإسلام وإعلاء قيمة العقل والعلم

أعلىَ الإسلام من قيمة العقل وأوجب علي المسلم إعماله في التأمل والنظر ومحاولة فهم سنن الله في الكون المادي وفي المجتمعات البشرية وفي خلق الإنسان والكائنات الحية، وسنن الله في التاريخ. كل هذا من أجل الاستفادة من هذه المسخرات الكونية والسنن الكونية والإنسانية والاجتماعية والتاريخية في التطبيقات العلمية المختلفة التي تحقق النهضة العلمية،وبالتالي النهضة التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية. هذا إلى جانب أن إعمال العقل في فهم سنن الله الكونية تسهم بلا شك في تقوية الطاقة الإيمانية عند المسلمين. فالكون كتاب الله المشاهد والقرآن الكريم كتاب الله المقروء، ولا يعقل أن يتناقضا، ولكن التعمق العلمي في فهم قوانين أو سنن الكون يعمق الإيمان وهذا ما يفهم من قوله تعالي (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء) (فاطر(٢٨) وقد حفلت آيات القرآن الكريم

بالآيات التي تدعوا إلى التفكير وإعمال العقل، وعادة ما تنتهي هذه الآيات بكلمة [١٨٢]. يتدبرون أو يتفكرون أو يعقلون... وقد كانت دعوة القرآن إلى النظر والتفكير والتأمل دعوة شاملة لا تقتصر علي جانب من جوانب الكون، أو ناحية واحدة من نواحي الحياة فكل خلق من خلق الله يجب أن يكون موضوعاً للتأمل والتفكير المنظم. والإسلام يدعوا إلى التفكير العلمي المنظم للوصول إلى سنن الله في خلق الله للاستفادة العلمية من هذه المعلومات من خلال تسخير الكائنات لمنفعة الإنسان. وهذا أمر مطلوب شرعا. ويمكننا إيجاز موقف الإسلام من العلم فيما يلي.

١- تمييز الإسلام بين العلم والجهل.

وفي منطق الإسلام لا يستوي عالم وجاهل (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) (الزمر(٩) ويقول تعالي (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ)(فاطر(١٩- ٢٠). وقد رفع الله الذين أوتوا العلم قدرهم علي غيرهم قال تعالي (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة(١١). كل هذا لأن الارتباط وثيق بين الإيمان اليقيني الراسخ وبين المعرفة العلمية لسنن الكون والنفس والتاريخ والإنسان والمجتمع. يقول تعالي (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء) (فاطر(٢٨).

وقد حمل الإسلام حملة شعواء علي الذين لا يفكرون بعقولهم، ولا يستخدمون قدراتهم العقلية التي وهبها الله لهم، ويعطلون هذه النعمة. وينعى القرآن الكريم علي المقلدين للغير تقليدا أعمي الذين يقولون (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) الزخرف(٢٣).

هؤلاء الذين لا يعملون عقولهم هم أقرب إلى الحيوانات منهم للإنسان [١٨٣]. يقول تعالي (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) (الأنفال(٢٢). ويقول تعالي عنهم (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ) (المائدة(١٠٤) والاستشهادات من القرآن والسنة علي فرضية إعمال العقل، وأن التفكير العقلي العلمي في الإسلام فريضة يجل عن الحصر مما لا يتسع له المقام هنا.

---

١) عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية مؤسسة الأنوار للطباعة: الرياض السعودية ١٩٧٨ ص ٣٠٥

(١٨٣) المصدر السابق ص ٣٠٧

٢- أهمية البرهان الشرعي والعقلي والعلمي في الفكر الإسلامي

ويؤكد الإسلام علي قضية البرهان العقلي والعلمي والمنطقي، فهو أساس الـتفكير الـصحيح، وأساس كل دعوى فكرية أو نظرية علمية [١٨٤] يقول تعالي عن اليهود والنصارى (وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)(البقرة(١١١). ويقول تعالي (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) (المؤمنون(١١٧) ويقول تعالي (أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (النمل(٦٤)

٣- دعوة الإسلام للمعارف اليقينية

يدعوا الإسلام معتنقيه إلى الاعتماد علي المعارف اليقينية وليس علي المعارف الظنية. يقول تعالي: (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُـمْ إِلاَّ يَخْرُصُـونَ) (الأنعام(١١٦)

٤- تأكيد القرآن علي المعرفة الصحيحة بعيداً عن الهوى والمصالح الخاصة:

يرفض الإسلام المعرفة النابعة عن الهوي، لأنها معرفة ضالة ومضلة بعيدة تماما عن منطق العقـل ومنطق العلم وعن مصادر المعرفة الصحيحة [١٨٥]: يقول تعالي (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْـرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ) (الروم(٢٩). ويقول تعالي (وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَـثِيرًا لَّيُـضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ) (الأنعام(١١٩)

٥- مصادر المعرفة في الفكر الإسلامي

للإسلام مصادره التي أقرها في المعرفة وهي ما يمكن أن نطلق عليه نظرية المعرفـة الإســلامية أو الإبستمولوجيا الإسلامية وتتمثل فيما يلي (١٨٦)

---

(١٨٤) المصدر السابق

(١٨٥) المصدر السابق ص ٣٠٨

(١٨٦) نبيل السمالوطي: التوجيه الإسلامي وصراع المنطلقات في علم الاجتماع: دراسة نقدية في علم اجتماع المعرفة دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦ ص ص ١٢ -١٧

أ- هناك المعارف اليقينية ومصدرها الوحيد والرئيس هو الوحي وتتصل بأمور العقيدة والعبادة والأحكام القطعية والقيم الأخلاقية والمقاصد الشرعية، هذه الخمسة أمور لا مجال لمعرفتها بشكل يقيني إلا من خلال الوحي متمثلا في القرآن وما صح عن رسول الله ﷺ.

ب- هناك المعارف الاجتهادية التي تعتمد علي العقل وعلي الحواس وعلي التجارب البشرية. هذه معرفة يدعوا لها الإسلام وهي أساس الفكر العلمي التجريبي وهذه إنما مجالها الكون المادي والمجتمعات البشرية والكائنات الحية (البيولوجية) والتاريخ الإنساني، قال تعالي: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل(٧٨) وهنا السمع والبصر يشيران إلى الحواس كمصدر مهم للمعرفة البشرية، أما الفؤاد فإنه يشير إلى العقل كمصدر مهم يجب إعماله في التفكير والفهم والتأمل وصولا للمعارف العلمية (١٨٧)

جـ - هناك مصدر أعلي الإسلام من شأنه وهو القلب. فالإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل. وعلي الإنسان أن يستفتي قلبه في الكثير من الفتاوي حين تختلف. فالقلب هو مركز الإيمان والخشوع والتقوي والبصيرة. يقول تعالي: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج(٤٦) (١٨٨)

هـ - الإسلام إذن يتطلب إعمال مصادر المعرفة الحسية التجريبية، والعقلية، والقلبية، لكنه يجعل مصدر الوحي هو....

المصدر الحاكم بمعنيين:

<u>الأول:</u> أن الوحي هو المصدر الوحيد بالنسبة للمعارف اليقينية في مجال الخمسة أمور التي سبق ذكرها (العقيدة، والعبادات، والمقاصد الشرعية، والأحكام القطعية، والقيم الأخلاقية)

---

(١٨٧) المصدر السابق . وراجع عبد الرحمن الزيندي: مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي: دراسة نقدية في ضوء الإسلام – مكتبة المؤيد العدوية – المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٢ الفصل الثاني من الباب الرابع ص ص ٤٩١ -٥١٦

(١٨٨) راجع نبيل السمالوطي المصدر السابق،،، وراجع: عبد الحميد الكردي: نظرية المعرفة بين القرآن والسنة: مكتبة المؤيد – السعودية – المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص ص ٣٦ -٤٧

الثاني: أن الوحي هو الذي يوظف المصادر الأخرى للمعرفة كل فيما يصلح له، لأن للمـصادر الحسية والعقلية والقلبية حدودا يجب الالتزام بها حتي لا نقع في التطرف أو الشطط أو الانحراف.

وقد ناقش المسلمون قضايا مبحث مهم في الفلسفة، وهو مبحث المعرفة أو (الابـستحولوجيا) فهذا (أبو محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي) (ت ٤٥٦هـ - ١٠٦٤م) له دراسة بعنـوان (الفصل في الملك والأهواء والنحل) أودع فيها نظريته في المعرفة. فالمعرفة عنده لها مـصادر، قـد تكون الحواس (المعرفة التجريبية)، وقد تكون العقل دون حاجة للحواس، وقد تكون البرهان المعتمد من قريب أو من بعيد علي الحواس. وفي جانب آخر من الدراسة يقول (ابن حزم) إن جميع أنـواع المعرفة يجب أن تعتمد علي الحواس، التي تعتمد بدورها علي ما حولها من محسوسات. ويذهب عمـر فروخ إلى أن (هذه المشكلة التي يزعم مؤرخوا الفلسفة الأوروبية أنها عرضت أول مـا عرضـت للفيلسوف الألماني (كانت) في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، مع أنها عرضت لفيلسوفنا (ابـن حزم) في أواسط القرن الحادي عشر.

الدعوة للتفكير وإعمال العقل في السنة النبوية

لم تكن السنة المطهرة أقل إعلاء لقيمة العقل وقيمة العلوم التجريدية المتصلة بالكون والإنـسان والمجتمع والتاريخ، فهناك العديد من الأحاديث الصحيحة المشهورة (١٨٩)، ومنها أن طلب العلـم فريضة علي كل مسلم ومسلمة، ومنها (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله بـه طريقـاً إلى الجنة) ومنها (العلماء ورثة الأنبياء) ومنها (من طلب العلم لله فهو كالصائم نهاره القائم ليله)، ومنها (إن فضل العالم علي العابد كفضل القمر ليلة البدر علي سائر الكواكـب، وإن الملائكـة لتـضع أجنحتها تواضعا لطالب العلم) ومنها أنه (يوزن مداد العلماء ودم الشهداء يوم القيامة فلا يفـضل احدهما علي الآخر) وعن أنس بن مالك قال: (أثني علي رجل عند رسول الله ﷺ بخير فقال: كيـف عقله ؟ قالوا يا رسول الله إن من عبادته، إن من خلقه، إن من فضله، إن من أدبه، فقال عليه الصلاة والسلام: كيف عقله قالوا يارسول الله نثني عليه بالعبادة وتسألنا عن عقله ؟ فقال رسـول الله: إن

(١٨٩) راجع: شوقي أبو خليل – مصدر سابق ص ٢٩٤ وراجع دراسة عمر فروخ بعنوان (عبقرية العرب في العلم والفلسفة – بيروت – ط ٢ ص ١٠٢ . وراجع دراسة: محمود قاسم دور العرب في تكوين الفكـر الأوروبي ص ٦٥

الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم) (١٩٠)

٧- دعوة القرآن للتفكير وإعمال العقل في كل مخلوقات الله

دعوة القرآن إلى النظر والتفكير والمعرفة في القرآن الكريم اتسعت لتشمل السماوات والأرض وما فيهن، وإلى الإنسان وخلقه، وإلى المجتمعات والقبائل، وإلى التاريخ، وباختصار إلى كل خلق الله. والهدف من هذا الوصول إلى القوانين أو السنن التي أودعها الله في هذه المخلوقات للاستفادة منها في الانتفاع بالمسخرات الكونية والانتفاع من دروس التاريخ ومن الإعجاز الإلهي في خلق الإنسان والكائنات الحية. هذا إلى جانب أن هذه المعرفة بالسنن أو القوانين في مجال الطبيعة والكون والإنسان والمجتمع والتاريخ.. تزيد بالتأكيد من الطاقة الإيمانية عند المؤمنين، والأكثر من ذلك تدفع بغير المؤمنين إلى الدخول في دين الله لإدراكهم دقة (صنع الله الذي أتقن كل شي)

ويدلنا التاريخ المعاصر أن الكثير من العلماء غير المسلمين اعتنقوا الإسلام نتيجة لإدراكهم الإعجاز الإلهي في الكون وفي خلق الإنسان والنبات والحيوان وغير ذلك من آيات الإعجاز الإلهي. وهذا أمر يؤيده قوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فصلت(٥٣) والفاحص لكتاب الله يجد العديد من الآيات البينات التي تجعل من النظر والتفكير فريضة إسلامية، كذلك تجعل طلب العلم وإعمال العقل في كل خلق الله فريضة كذلك. ويكفي هنا أن نورد بعض النماذج، فمنها قوله تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ*الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران(١٩١-١٩٠) وقوله تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة(١٦٤) وقوله تعالى (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ) (يونس(١٠١). وقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ

(١٩٠) راجع المصدر السابق ص ٣٠٨

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(سورة الرعد (٣) (٤)

والملاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالي يلفت الناس إلى قضايا محددة مطلوب منهم التفكير وإعمال العقل بصددها وصولا إلى قوانين الله التي أودعها في هذه المخلوقات. ويقول تعالي (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا* فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا *وَحَدَائِقَ غُلْبًا* مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (عبس(٢٢- ٣٢) وقال تعالي (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا *وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا *وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا *وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا *وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا *وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا *وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا *وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا *لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا *وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (النبأ ٦- وما بعدها) وهذه الآيات وغيرها يلفتنا القرآن إلى إعمال العقل في العديد من مجالات وقضايا العلوم التجريبية كالفلك والكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والبحار والعلوم المائية وعلوم الطاقة والمناخ وعلوم الطب والهندسة المختلفة.

ونبهنا القرآن إلى العديد من مجالات العلوم الكونية، فإلي جانب الآيات الكريمة السابقة يقول تعالي في سورة (يس) (وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ * وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس ٣٣ – ٤٠) ويلفتنا القرآن إلى مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية (١٩١) ومن هذا قوله تعالي (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج ٤٦) ويقول تعالي (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات ١٣) ولا شك أن القصص في القرآن الكريم وتاريخ الجبابرة والكفار من

---

(١٩١) راجع نبيل السمالوطي: المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع: دراسة في علم الاجتماعي الإسلامي: دار الشروق- جدة / الطبعة الثانية ١٩٨٥ ص ص ٣٦ – ٥٨

أقوام نوح وهود وصالح وغيرهم إنما الهدف منها الاستفادة وأخذ العبر والوصول إلى سنن الله في التاريخ مثل عاقبة الظلم، والعدل، ونصر الله لمن ينصره، ودور المؤمنين في تنفيذ واجبات الاستخلاف وعمارة الأرض وعبادة الله وإقامة العدل ونصرة المظلومين... الخ. وقد تابع القرآن الكريم تاريخ البشرية منذ آدم عليه السلام وحتي عصر الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكان الهدف من هذا استخلاص القوانين التي تحكم الإنسان وتحكم المجتمعات وتحكم حركة التاريخ (١٩٢)، من أجل استخلاص الدروس والعبر والاستفادة منها وصولا إلى مجتمعات آمنة مطمئنه متقدمة ناهضة علي جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية انطلاقا من قاعدة إيمانية راسخة، ومن منظومة قيم أخلاقية إسلامية حاكمة لسلوك الإنسان والجماعات وحركة المجتمعات والتاريخ.

العلاقة بين العقل والوحي:

٨- سبق أن أشرنا إلى نظرية المعرفة في الإسلام أو ما يمكن تسميته بالابستمولوجيا الإسلامية، وأوضحنا أن الإسلام يلفت المسلمين إلى استخدام المصادر التجريبية أو مصادر الحس، والعقل كمصدر أساس للمعرفة إلى جانب القلب كمصدر أساس لليقين والاعتقاد. لكن الكثير من الفلاسفة والمفكرين تساءلوا عن علاقة الوحي بالعقل،وقد عالج هذه القضية كبار فلاسفة ومفكرين غير مسلمين. وقد رفع البعض من شأن العقل إلى درجة أعلي من الوحي، ولعل هذا هو ما ساد في عصر النهضة الأوروبية كرد فعل للتطرف الكهنوتي الذي ساد في القرون الوسطي علي يد رجال الكنيسة، والذي تمثل في نظريات التفويض الإلهي المباشر وغير المباشر (١٩٣) وقد ساد في هذه الفترة المظلمة من التاريخ الأوروبي أشد أنواع التسلط الديني الكنسي الذي أحرق العلماء والمفكرين وكان لا يسمح بأي قدر من حرية التفكير، نجد أنه في عصر النهضة الأوروبية حدث نوع من التطرف العلماني، حيث أحلوا الإنسان مكان الله، وأحلوا العقل مكان الشرع والوحي، ونظروا إلى العقل كقوة قادرة علي الفهم والتفسير والوصول إلى القوانين الطبيعية، وكقوة قادرة علي التشريع، وهناك ظهرت منظومة العلوم الإنسانية، وكان المقصود بها أن الإنسان هو الذي يشرع

---

(١٩٢) نبيل السمالوطي: التوجيه الإسلامي: وصراع النظريات والمنطلقات في علم الاجتماع – مصدر سابق ص ص ٩٠ –١٠٩

(١٩٣) راجع نبيل السمالوطي المصدر السابق وراجع للمؤلف دراسة بعنوان: نحو توجيه إسلامي لمناهج علم الاجتماع: رؤية نقدية اجتهادية: دار المعرفة الجامعية ١٩٩٦

لنفسه وللمجتمع ولا توجد قوة أو مصدر أعلي منه يشرع للإنسان، وهنا تم إلغاء الوحي كمـصدر سماوي أو إلهي للمعرفة والتشريع. واتجاهات ماكس فيبر M. webwr وكـارل مـاركس K. Marx تعبر بجلاء وتنظر بشكل واضح لهذا الاتجاه(١٩٤).

وهناك بعض المفكرين لا يذهبون إلى الغاء الوحي كمصدر للمعرفة ولكنهم جعلـوه مـساويا للعقل، وهناك من يقلل من شأن العقل وينكرون عليه إمكان التوصل إلى أي شيء من الحـق. ولا شك أن هذه الآراء والاتجاهات تتصادم جميعها مع الرؤية الإسلامية. فمن الخطأ والخطـر أن تجعـل العقل البشري ندا للوحي، لأنه أحد الأجهزة التي خلقها الله في الإنسان يتلقي بها الـوحي لفهمـه واستيعابه والعمل به وتطبيقه. فالعقل جهاز مخلوق محدود يدرك ويفسر ما يمكنه تفسيره، لكنه يسلم بما هو فوق إدراكة (١٩٥). فالعقل والكينونة الإنسانية برمتها كما يقول سيد قطب (١٩٦) (غير كلي ولا مطلق ومحدودان بحدود الزمان والمكان) وهناك حقائق مطلقة فوق قدرة العقل كالألوهيـة والغيبيات، ليس أمام العقل السليم إلا التسليم بهذه الكليات والحقائق المطلقة الـتي لا سـبيل إلى إدراكها ولا معرفتها إلا بالوحي. فالوحي مجاله كل ما هو غيبي، وكل ما هو قطعي الثبوت والدلالة. فالوحي يحدد لنا خمسة أمور.

أ) – العقيدة المتصلة بالتوحيد – توحيد الأسماء والصفات.

ب) – المقاصد الشرعية أو الكليات الخمس في الشريعة الإسلامية

ج)– العبادات من صلاة وصيام وزكات وحج.. فهي أمور توقيفية.

د) – الأحكام القطعية – قطعية الثبوت والدلالة.

هـ)– القيم الأخلاقية.

هذه منطلقات لا مجال لإعمال العقل فيها إلا بالفهم والاستيعاب والتـصديق والتطبيـق. أمـا ماعدا ذلك من أمور الكون والكائنات الحية والمجتمعات والتاريخ، فالتفكير العقلي فيها والوصـول بصددها إلى السنن الحاكمة لها فريضة إسلامية كما يقول عباس العقاد.(١٩٧)

---

(١٩٤) المصدر السابق

(١٩٥) عبد الكريم عثمان: مصدر سابق ص ٣١١

(١٩٦) راجع سيد قطب في كتابه خصائص التصور الإسلامي ص ١٩

(١٩٧) نبيل السمالوطي – نحو توجيه إسلامي لمناهج علم الإجتماع – مصدر سابق ص ٢٢ ومـا بعـدها،،، وراجع كتاب (التفكير فريضة إسلامية) لعباس محمود العقاد: سلسلة اقرأ ١٩٦٥

ويجب تحديد العلاقة بين الوحي والعقل، بأننا نفهم الوحي بالعقل، ونضبط العقل بالوحي. فالعقل في حاجه لضبط وتحديد لمهامه حتي لا يتخطاها. وهنا فإن الوحي إذ يجعل التفكير فريضة إسلامية، يحدد مجالات إعمال العقل فيما يصلح له حتي لا ينحرف أو يشطط. فالأصل في المعرفة استخدام كل مصدر فيما يصلح له، والضابط لكل مصادر المعرفة التي تتصل بالعقل والحس والقلب إنما هو الوحي [١٩٨] ولا يمكن أن يحدث تناقض حقيقي بين الدين والعلم أو بين العقل والوحي [١٩٩] فالوحي مصدره الخالق، والعلم موضوع ظواهر الكون الذي خلقه الخالق. يقول أبوالأعلي المودودي (وجملة القول أن هذا الدين لا يمكن لأحد أن يتبعه ويبقي ثابتا مستقيما في اتباعه، إلا بقدر ما يكون له من العلم والبصيرة والنظر والفكر، لأنه بقدر ما ينال الكمال في هذه الجوانب، ينال كمال درجاته عند الله) [٢٠٠] ويقول (انظر نظرة في تاريخ هذا الدين (يعني الإسلام من آدم إلى محمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام) تتجلي لك حقيقة ما قلناه.. فالله تعالي ما أرسل نبيا إلى عباده وآتاه كتابه وشريعته، إلا وآتاه معهما شيئا سماه الحكمة ليعلم عباده الكتاب ويجعلهم يتبعونه علي بصيرة من الأمر. قال تبارك أسماؤه (فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)(النساء ٥٤) وقال (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)(آل عمران٤٨). فما هي الحكمة يا تري ؟ إنما نور العلم والبصيرة، وملكة التدبر والتأمل في الكتاب، والفقه في الدين ومعرفة أصوله وأسراره [٢٠١]. وقد يظن البعض أن هناك تعارضا بين الوحي وبين نظرية علمية أو حقيقة توصل إليها العلم. هنا تجدد الإشارة إلى ضرورة الرجوع للمتخصصين في العلوم الشرعية لفهم النص القرآني، فإذا كان نصا صريحا ولا يحتمل التأويل، فإنه لو تعارض مع نظرية علمية، فإن النص هو الحجة علي النظريات العلمية، لأن الأخيرة تتصل بالمعارف العقلية الظنية، ويتقدم العلم كما يشير إلى هذا أحد كبار أساتذة المناهج المعاصرة في بريطانيا وهو (كارل بوبر) K. poper من خلال منهج التكذيب Falsificalion Method

---

(١٩٨) راجع في هذا: أبو الأعلي المورودي: الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة: دار القلم – الكويت – الطبعة الرابعة ١٩٨٠ .
الباب الأول: بعنوان الإسلامي دين العلم والعقل ص ص ٩ –١٧
(١٩٩) المصدر السابق ص ١٢
(٢٠٠) المصدر السابق ص ١٢ .
(٢٠١) المصدر السابق

والنظرية الأحدث تكذب السابقة عليها وهكذا يتقدم العلم [٢٠٢]. وهذا ما حدث بالنسبة لنظريات جاليليو، ثم نيوتن، ثم أينشتين، ثم المعاصرين. فالثابت واليقيني هو ما جاء بالوحي الإلهي – القـرآن وما صح عن الرسولﷺ. وهذا هو الميزان الذي يقاس عليه كل ما يتوصل إليه الإنسان من معرفـة سواء من خلال العقل أو الحواس أول القلب [٢٠٣].

٩- علم الإنسان محدود ولا توجد نهائية علمية

الله هو المعلم والمربي والخالق البارئ المصور، وكانت أول آية نزلت علي قلب الرسول محمد ﷺ اقرأ. وتكررت مرتان في سورة العلق. أما القراءة الأولي فإنها باسم الله الخالق الذي خلق الإنسان من علق. وهذا تعليم للإنسان بأنه مخلوق لله، وأن أصله العلق. والقراءة الثانية باسم الله الأكرم المعلـم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم [٢٠٤] وهنا جاء الله بالأداة الرئيسة للعلم وهو القلم، وهذا يتضمن الكتابة بالقلم. والقراءة والكتابة هي أساس كل العلوم. وقد أقسم الله بأهم أدوات العلـم والبحث والدراسة وهي القلم والكتابة في سورة (ن والقلم) وبداينها (ن وَالْقَلَمِ وَمَـا يَـسْطُرُونَ) (القلم (١) والدعوة إلى العلم والكتابة والقراءة وإعمال العقل والحواس دعوة غير محدودة في كل مجالات الكون والمجتمعات والتاريخ والإنسان، غير محدودة إلا بالنسبة لمجالات الغيب التي تكفل بهـا الوحي. فكل معرفة عقلية صحيحة نافعة يتوجه اليها الخطاب القرآني. وأصل العلم هو فتح الله علي العقل الإنساني وعلي مصادر معرفته للإدراك والتساؤل والفهم والتفسير. يقول تعالي لنبيه المصطفي (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (النساء١١٣) فالعلم الذي يـصل إليـه العقل في القراءة الإسلامية هو منحة وعطاء من الله الخالق. وهذا العلم مهما اتسع فهـو محـدود لا يذكر بجانب علم الله يقول تعالي (وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)(الإسراء ٨٥).

ويقول تعالي عن علم الله (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَن تَنفَـدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) (الكهف ١٠٩).

---

(٢٠٢)كارل بوبر: عقم المذهب التاريخي: ترجمة عبد الحميد صبرة – منشأة المعارف – الإسكندرية ١٩٦٠ ص ٤١ وما بعدها .

(٢٠٣) نبيل السمالوطي: نحو توجيه إسلامي لمناهج علم الاجتماع: مصدر سابق . انظر ص ٧٥ وما بعـدها: الفقره الخاصة (الوحي كمصدر رئيسي في دراسات علم الإجتماع)

(٢٠٤) راجع سورة العلق